

جدات الزرافات: السر الخفي وراء بقاء القطعان في البرية ودراسة تكشف مجتمعًا أكثر تعقيدًا



الاثنين 3 أغسطس 2026 08:30 م

لطالما ارتبطت الزرافات في أذهان العلماء والجمهور بصورة الحيوان الهادئ والمنعزل، الذي يقضي معظم وقته متنقلًا بين الأشجار بحثًا عن الغذاء دون أن يقيم علاقات اجتماعية معقدة مع أفراد نوعه. إلا أن دراسة علمية حديثة قلبت هذه الصورة رأسًا على عقب، بعدما كشفت أن الزرافات تمتلك نظامًا اجتماعيًا متطورًا يشبه إلى حد كبير المجتمعات التي تعيشها الأفيال والشمبانزي والحياتيات، وأن للإناث الأكبر سنًا، وخاصة الجدات، دورًا محوريًا في حماية القطعان وضمان استمرارها.

وتوصلت الدراسة، التي استندت إلى مراجعة أكثر من 400 بحث علمي، إلى أن الزرافات لا تعيش في عزلة كما كان يُعتقد لعقود، بل تعتمد على شبكة معقدة من العلاقات الأسرية، تتشارك فيها الإناث رعاية الصغار ونقل الخبرات بين الأجيال، بما يعزز فرص بقاء القطيع في البيئات الإفريقية القاسية.

عقود من المفاهيم الخاطئة

على مدار سنوات طويلة، افترض علماء البيئة أن الزرافات لا تمتلك بنية اجتماعية تستحق الدراسة، بل ووصفتها بعض المراجع العلمية في تسعينيات القرن الماضي بأنها حيوانات "منعزلة اجتماعيًا" لا تكوّن روابط مستقرة مع أفراد نوعها.

لكن التطور في تقنيات المراقبة الميدانية، إلى جانب الدراسات السلوكية الحديثة، دفع الباحثين إلى إعادة النظر في هذه الفرضية، ليكتشفوا أن الزرافات تنسج علاقات اجتماعية معقدة يصعب ملاحظتها بالعين المجردة بسبب طبيعة تحركاتها الهادئة والمتباعدة.

الجدات: عماد استقرار القطيع

تكشف الدراسة أن الإناث المسنات لا يتوقف دورهن عند انتهاء سنوات الإنجاب، بل يتحولن إلى عنصر أساسي في حياة المجموعة.

فبعد انتهاء القدرة على التكاثر، والتي تسبق نهاية العمر المتوقع بنحو ثماني سنوات تقريبًا، تواصل الجدات أداء دور قيادي داخل القطيع، إذ يشاركن في رعاية الصغار، ويوفرن الحماية والخبرة للأجيال الجديدة، بينما يسمح وجودهن للإناث الأصغر بالتفرغ للإنجاب بوتيرة أكبر.

ويرى الباحثون أن هذه المرحلة تمثل نحو 30% من حياة أنثى الزرافة، وهي فترة تستثمر فيها خبراتها الطويلة لخدمة المجتمع بأكمله، وليس ذريتها فقط.

بنك معرفي بين الأجيال

وتوضح الباحثة الرئيسية في الدراسة، عالمة البيئة زوي مولر، أن الإناث الأكبر سنًا تمثل "مستودعًا حيًا للمعرفة"، تمامًا كما هو الحال لدى الأفيال.

فالخبرة التي اكتسبتها هذه الحيوانات عبر سنوات طويلة تساعد القطيع على اتخاذ قرارات أكثر دقة عند البحث عن الغذاء أو المياه أو التعامل مع المخاطر، وهو ما يرفع معدلات البقاء، خاصة خلال فترات الجفاف أو نقص الموارد

وتشير فرضية "الجدة"، التي سبق اختبارها لدى أنواع حيوانية أخرى، إلى أن استمرار حياة الإناث بعد انتهاء مرحلة الإنجاب ليس أمرًا عشوائيًا، بل يمثل ميزة تطورية تضمن نقل الخبرات والمعرفة من جيل إلى آخر، وهو ما يزيد من قدرة المجموعة على التأقلم مع التغيرات البيئية

تشابه لافت مع مجتمعات الأفيال

وتؤكد مولر أن النتائج أظهرت أوجه تشابه كبيرة بين الزرافات والأفيال، حيث تلعب الإناث الأكبر سنًا دور القيادة والتوجيه، وتساهم في الحفاظ على تماسك المجموعة

وتقول إن المجتمعات التي تضم إناثًا مسنات تكون أكثر قدرة على تجاوز الأزمات البيئية، لأن تلك الحيوانات تمتلك ذاكرة طويلة وخبرة تراكمية تساعد في اختيار أفضل مسارات الهجرة ومصادر الغذاء والمياه

لماذا تبدو الزرافات منعزلة؟

ورغم هذه العلاقات الاجتماعية الوثيقة، لا تزال الزرافات تبدو للكثيرين وكأنها تعيش منفردة

وتفسر الدراسة هذا الانطباع بأن الحيوانات تعتمد استراتيجية خاصة لتوفير الطاقة، إذ تحتاج أجسامها الضخمة وأعناقها الطويلة إلى كميات هائلة من الغذاء، لذلك تقلل من الحركة غير الضرورية، وتقضي ما يقرب من 13 ساعة يوميًا في التغذية

وبالتالي فإن تباعد المسافات بين الأفراد لا يعكس ضعف العلاقات الاجتماعية، وإنما يمثل وسيلة فعالة للتكيف مع متطلبات الحياة في السافانا الإفريقية

أسرار جديدة في طرق التواصل

ومن النتائج اللافتة أيضًا أن الباحثين بدأوا خلال السنوات الأخيرة فقط في فهم الطريقة التي تتواصل بها الزرافات

فعلى الرغم من أنها تبدو صامتة في أغلب الأوقات، أظهرت الدراسات الحديثة أنها تستخدم أصواتًا منخفضة التردد خلال ساعات الليل، في شكل من أشكال التواصل الذي لم يكن معروفًا سابقًا

ولـ يزال العلماء يعملون على فك شفرة هذا النظام الصوتي، الذي قد يكشف مستقبلًا عن مزيد من التفاصيل حول طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل القطعان

أهمية للحفاظ على الزرافات

يرى الباحثون أن فهم التنظيم الاجتماعي للزرافات لا يقتصر على إثراء المعرفة العلمية، بل يحمل أهمية كبيرة لجهود الحفاظ على الحياة البرية

فمعرفة كيفية تكوين القطعان والعلاقات بين أفرادها تساعد في وضع سياسات أكثر فاعلية لحماية هذه الحيوانات، والحد من تأثير التوسع العمراني والأنشطة السياحية التي قد تؤدي إلى تفكيك هياكلها الاجتماعية الطبيعية

كما يمكن لهذه النتائج أن تساهم في تحسين برامج إدارة المحميات الطبيعية، بما يضمن الحفاظ على الروابط الأسرية التي تعد عنصرًا أساسيًا في استقرار مجتمعات الزرافات

إعادة رسم صورة الزرافة

وتأمل الباحثة زوي مولر أن تمثل هذه الدراسة نقطة تحول في النظرة العلمية إلى الزرافات، مؤكدة أنها ليست مجرد حيوانات هادئة تتجول منفردة في السهول الإفريقية، بل ثدييات ذكية تمتلك مجتمعات متماسكة وأنظمة تعاون متطورة أسهمت في بقائها عبر آلاف السنين في بيئة مليئة بالمفترسات والتحديات الطبيعية

وتضيف أن الاعتراف بهذا التعقيد الاجتماعي قد يغير أساليب دراسة الزرافات وحمايتها مستقبلاً، ويمنحها المكانة التي تستحقها بين أكثر الثدييات ذكاءً وتنظيمًا في العالم

